لا يمكننا الحديث عن الحركات السينمائية دون التوقُّف عند أكثرها نفوذاً على مَرّ تاريخ السينما. رصدت الناقدة الأميركية الراحلة «بولين كايل» في هذا المقتطف من مقالها، المنشور بمجلة «New Republic» في سبتمبر/أيلول من عام 1966، التأثير الفَنّي والثقافي الذي تركه رمز الموجة الفرنسية الجديدة «جان لوك غودار» على الشباب الأميركي في تلك الفترة، وعلى الحركة الفَنّيّة المستقلّة في العالم برمته، وما آلت إليه من سيولة واستسهال بسبب التقليد غير الواعي لصيحات التمرُّد الفرنسي. كايل واحدة من أهم نقاد السينما في التاريخ، قال عنها مواطنها «روجر إيبرت» إن تأثيرها الإيجابي على السينما في أميركا قد فاق أي شخص آخر خلال العقود الثلاثة الأخيرة. اللافت أنه بعد كتابة هذا المقال ببضع سنوات تتولّد موجة جديدة في أميركا عُرِفَتْ بـ«هوليوود الجديدة». تأثّرت هذه الموجة بأعمال غودار، ولكنها كانت أذكى من الوقوع في الأخطاء التي حذرت منها كايل في السطور التالية.

بولين كايل

ترجمة: رؤيا شعبان

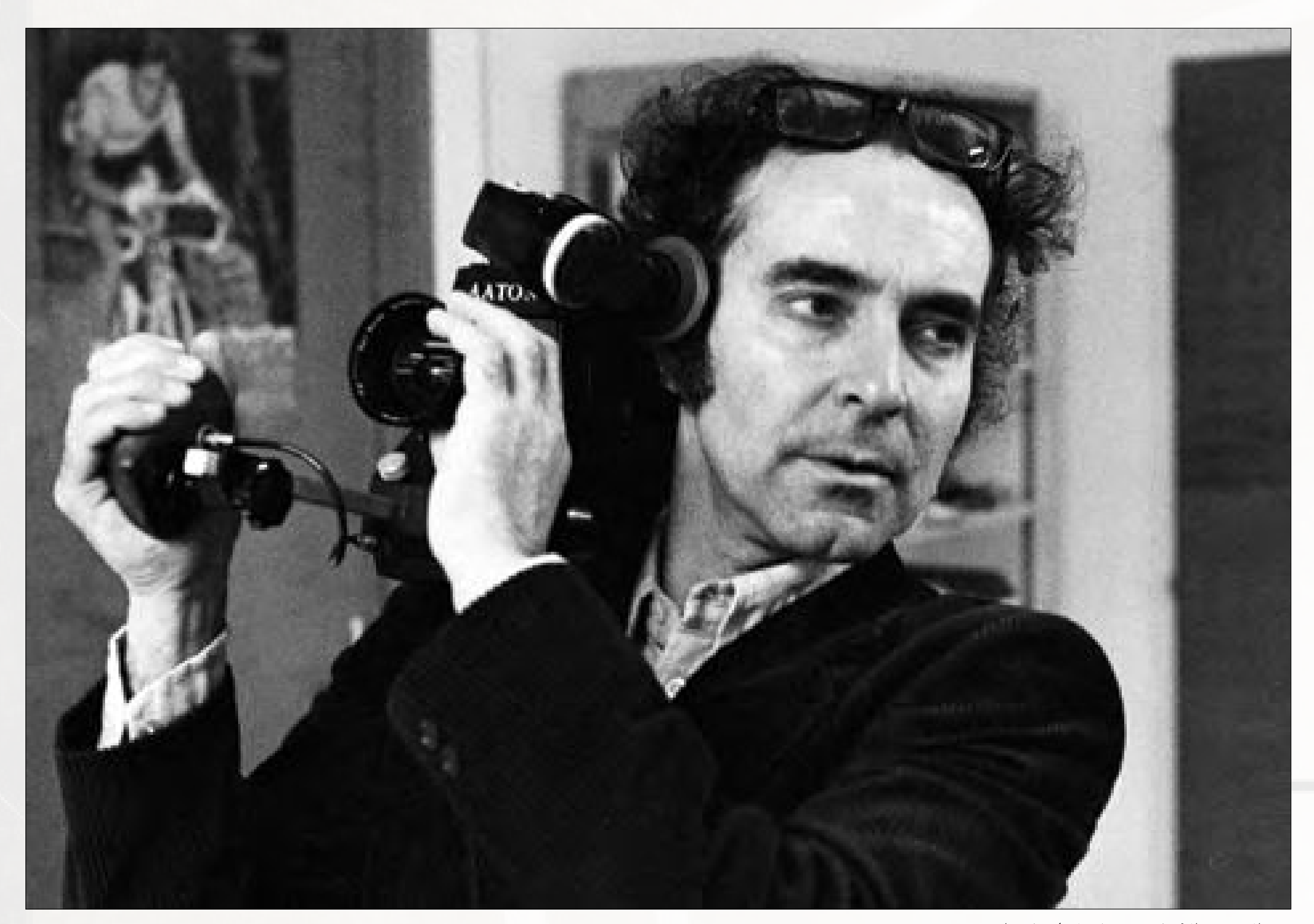
كيف ألهم غودار أجيالاً من بعده؟

هناك معيار مُقلق في أعمال غودار ربما يساعد على فهم سبب انجذاب الشباب إليها وتآلفهم معها، وأيضاً السبب الذي يجعل الأشخاص الأكبر سناً يُطلقون عليه فَنّان «الزمرة»، ولا يعتقدون بأهمية أفلامه. لا يبدو أن ثمّة أي مستقبل لشخصيات أفلامه. إنهم أكثر حيوية و(أكثر جانبية)، لأنهم لا يهتمون إلّا باليوم الذي يعيشونه لا أكثر؛ ليس لديهم وظائف، ولا خطط، فقط خيالات لِما يمكن أن يفعلوه من أعمال، وسرقات، وغراميات، وسياسة، ومغامرات، ونشوة، حياة تشبه الأفلام. وحتى في عوالمه المستقبلية، مِثل فيلم «Alphaville»، فهي توثيق لباريس الحاضر بطريقة فوتوغرافية. كلّ أفلامه لها إحساس الوثائقيات، وكما هو معروف فقد كان لأفلام العصابات الأميركية من فئة الدرجة الثانية تأثير واضح عليه. وحتى قبل فيلم «Alphaville»، كان الناس في فيلمه «The married Woman» بالفعل مثل شخصيات فيلم خيال علمي، خاوين وفارغين من المشاعر، لم يتطلّب الأمر منه عالماً مجنوناً ليمرِّر أرواحهم.

شخوص أفلامه يافعة؛ منفصلون عن أسرهم وحياتهم السابقة. سواء كان الأمر مقصوداً منه أو بلا وعي، فهو يخلق شخصيات يتيمة، مثل الطلاب في دور العرض، مرتبطين فقط مع الأصدقاء والعشاق، تلك الروابط التي تنتهي مع كلمة أو مع اقتراب نهاية الفصل الدراسي. إنهم أيتام، بشكل مُوسَّع، وبمعنى أوسع، منفصلون عن العالم. إنهم جيل من الغرباء المتشابهين.

كتب رجل متقدِّم في العمر مؤخراً: «آهٍ، إنهم شباب معاصرون مملون، ومملون للغاية! كلها سلوكيات مظهرية ولا شيء وراءها. حين كُنت في العشرينات مِن عمري، لم أتسكَّع عبثاً، وأتظاهر بأني متمرّد، لقد زرتُ أماكن وعملت أعمالاً مختلفة. إن السبب الذي يجعلهم جميعاً يخافون الميادين (يقصد مفترق الطرق)، هو أن الميادين تذكّرهم بالشيء الوحيد الذي يحاولون جميعاً نسيانه: هناك مستقبل ويجب عليهم التحضير له».

أظن، إنه كان على خطأ. إن الشباب لا «يحاولون النسيان»، إنهم حتى لا يفكرون في الأمر من نفس المنطلق. ميزة غودار، وربما حدوده كفَنّان هي أنه يقوم بالتعبير المكثّف عمّا يشعر ويفكِّر فيه هؤلاء. فشخصيات أفلامه لا تخطِّط ولا تقلق بشأن فرص العمل أو تجاه المسؤوليات؛ إنهم يعيشون اليوم لا غير. فشبابهم جعلهم أرستقراطيين بالفطرة، في لا مبالاتهم بسبل العيش،



المخرج الفرنسي جان لوك غودار

والأمن، والعمل الجاد؛ والرخاء الذي حوَّل جيلاً بأكمله، أو على الأقلّ أفراد الطبقة الوسطى منهم، إلى أرستقراطيين. الأمر المنهل هو عدد الأماكن التي ينهبون إليها والأمور التي بوسعهم القيام بها.. الفرق هو كيف يفعلون كلّ هنا بسهولة، حتى نظرتهم إلى الإبداع، وكأنه شيء يأتي بالفطرة، نظرة مُشابهة بشكل كبير لتعالي الفنّانين الأرستقراطيين على الطبقة الوسطى التي عليها العمل بكدح لأجل لقمة العيش، ولأجل التعليم، ولأجل الثّقافة.

وهنا أيضاً، فإن غودار هو الرمز، والنموذج، والدليل. فهو يجعل الأمر كله يبدو هيّناً، وشخصياً للغاية، فيعمل على صنع فيلم بعد فيلم وحسب.. لأنه ماهر بما فيه الكفاية (ومنضبط بشكلٍ مبهر)، ويصعب التصديق بأنه يصنعُ أفلامه بتكلفة تقلّ عن المئة ألف دولار، ولأن هناك جمهوراً كافياً من الشباب في فرنسا لدعم هنه الأعمال، فبوسعه القيام بأي شيء يريده بهذه الميزانيات المحدودة. ويبدو الوحيد، تقريباً، بين مخرجي الأفلام الذي يحقّق هذه الاستقلالية، وذلك إنجاز بطولي حقيقي. فهو أيضاً البرهان للأجيال الأصغر بأنه من الممكن أن يصنعوا الأفلام بطريقتهم الخاصة. وبالرغم من ذلك فهم غير مدركين كم هو نادر وكم هو صعب أن يكونوا في هذا الموضع. فحتى مع وجود كلّيّات ومؤسّسات جعلت الأمور أسهل مما كانت عليه في السابق، فإنهم ليسوا فقط بحاجة للموهبة، وإنما الصلابة؛ حتى يصيروا مستقلّين.

وكما كان بمقدور غودار أن يحلّ مشاكل الحرّيّة الاقتصادية، فإن عمله الآن يطرح مشاكل حرّيّة الفنّان، مشاكل كان من حسن حظ قليل من الفنّانين في تاريخ السينما أن يتمكّنوا من مواجهتها. فتاريخ المخرجين العظماء هو تاريخ العقبات الاقتصادية والسياسية، والتنازلات، والهزائم، واليأس، وحتى الخزي. مخرجون من أمثال جريفيث، وايزنشتاين، وشتروهايم، وسترنبرغ، وكوكتو، ورينوار، وماكس أوفلس، وأورسون ويلز، كلّهم فشلوا في ذلك، لأنه لم يكن بوسعهم فعل ما كانوا يريدون .. فلو فشل غودار في ذلك الآن أيضاً، سيكون سبب فشله ليس أنه أراد أن يفعل الشيء الذي يريده، والذي قام بفعله حقاً، وإنما لأنه لم يكن جيداً بما فيه الكفاية.

ربما يتظاهر غودار بالهروب من الحرّيّة عندما يقوم بصنع عمل جميل وبعدها، يبدو وكأنه يريد ببساطة التخلُّص منه. هناك نوعٌ من الإلحاح


مشهد من فيلم «Alphaville»


من فيلم «The married Woman»

بإفشال الذات في أسلوب تعامله مع مواضيع أفلامه، استعجاله نحو إنهاء العمل بأكبر سرعة ممكنة، حتى لو كان ذلك بانتحار الشخصية الرئيسية أو العمل ككل. إنّ غودار غير صبور على النهايات أبداً، في أعماله لا توجد وسيلة لحَلّ المشاكل مهما تكن، يجب أن يحصل أمر ما حتى لو كان كارثياً، ولا يوجد فعل آخر بإمكانه حَلّ ذلك.

وبالمثل، يبدو أن كثيراً من الشباب لا ينتظرون حتى يُقال عنهم بأنهم فَنّانون، هم ببساطة يصرحون بأنهم كذلك، فليس لديهم الصبر حتى يبشروا البدء بعمل الفَنّ. إن فكرة الطالب عن مهنة صانع الأفلام ليست بأنه ذلك الشخص الذي يجب أن يبقى في البيت ليقرأ ويفكِّر ويعمل، كما هو الحال مع معظم أنواع الفنون الأخرى، ولكن بالذهاب للخارج مع الأصدقاء والإسراع في التصوير، كما لو كان نشاطاً اجتماعياً. وهي صورة ذهنية مفرطة الانفتاح والنرجسية عن عبقرية الفَنّان، تأثُّراً بشخصية جيدو في فيلم 8 ½ لفيليني؛ أي أن المخرج هو النجم. يبدو أن البعض قد لاحظ مع ظهور فيلم «Juliet of the Spirits» بأن فيليني كان مانح حفلات جيداً. وبالمثل فصناعة الأفلام بنفس الطريقة التي يقوم بها الكثير من الشباب اليوم أصبحت مثل حضور حفلة.

إن «الإبداع» طريق سريع نحو النفوذ والشهرة. فمغني البوب أو المُلحِّن، أو حتى المُصمِّم قد يقول: «إنها طريقة إبداعية لكسب العيش»، وهذا يعني إنه لا يحتاج إلى الكثير من الدراسة والتخطيط، بل فقط يحتاج لاكتشافاته ومهاراته الخاصة وموهبته ليصل إلى القمة من دون تعب. لقد سمعت ذات مرّة مخرج أفلام شاباً يقول لطالب فنون مراهق: «لماذا تذهب إلى حصص الرسم؟ فإما أنك تجيد الرسم أو لا. كلّ ما عليك فعله هو أن تحصل على عرض». بوسع المرء أنّ يتخيَّل كيف يكون رد الفعل على وجوه هؤلاء لو توجَّب عليهم الاستماع لأولئك المدرسين الذين كانوا يعرِّفوننا ما يتوجَّب علينا القيام به حتى يكون بوسعنا القيام بالأشياء بنفس الطريقة التقليدية قبل أن نتحصَّل على الحقّ لتحمُّل الخسائر والقيام بها على طريقتنا الخاصة. إنهم ببساطة يختارون الطرق المختصرة مثل أنواع الفنون الأخرى أو فَنّ البوب، حيث يكون بوسعهم «التعبير عن أنفسهم». مثل بيتر بان، ليس عليهم سوى القفز، ثمّ الطيران.

المصدر: مجلة «New Republic» في سبتمبر/أيلول من عام 1966، التأثير الفَنّي والثقافي الذي تركه رمز الموجة الفرنسية الجديدة